

الاستشراق والمستشرقون

من هم المستشرقون؟

في إجابة عن هذا السؤال يقول المرحوم الدكتور إبراهيم عبد المجيد اللبان عضو مجمع البحوث بالأزهر في دراسة له عن «المستشرقون والإسلام»^(١).

«المستشرقون اسم واسع يشمل طوائف متعددة غير عربية تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة، فهم يدرسون العلوم والآداب الخاصة بالهند والفرس والصين واليابان والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق»

وما طبيعة عملهم؟

بدأ الغرب دراسة العربية للترجمة منها في وقت مبكر^(٢) بقصد الاستفادة من علوم العرب، كما فعل المأمون في الترجمة عن اليونانية، ومع هذا إشباع رغبتهم في التهجيم على الإسلام والنيل منه، واستمر هذا قروناً، ثم بدأت بعض دراسات حيادية من بعضهم القليل جداً..

ويقول الدكتور اللبان في هذا^(٣).

«إن الاستشراق عملية قديمة بدأت منذ قرون، ثم تطورت ولبست أثواباً

(١) في بحث قدمه لمجمع البحوث ونشرته مجلة الأزهر في ملحق بها بهذا العنوان في صفر ١٣٩٠ هـ أبريل ١٩٧٠ م.

(٢) منذ الحروب الصليبية، فقد ترجمت جداول الخوارزمي الفلكية إلى اللاتينية سنة ١١٢٦ م وكان لها أثرها البعيد في معرفة أوروبا بالفلك هي وغيرها مما ترجم من كتب الفلك العربية، وكذلك الكتب الطبية العربية التي عكف الغربيون على ترجمتها للاستفادة منها، وترجمة علوم العرب عامة، ويمكن الرجوع إلى الكتب التي ألفت عن العرب والعلم أو المسلمون والعلم، وأثرهم في نهضة أوروبا. وراجع أيضاً إنشاء الجامعات والمدارس لترجمة العلوم العربية ص ١٧٩ من كتاب «القرآن والمنهج المعاصر» للمستشار عبدالحليم الجندي طبعة دارالمعارف ١٩٨٤.

(٣) المصدر السابق ص ٦.

شتى، واستعملت أساليب مختلفة وتحكمت فيها نوازح متباينة وقد قاموا بترجمة القرآن أيام الحروب الصليبية بقصد العثور على مطاعن يطعنون بها الإسلام».

«فقد كانت في أول أمرها محاولة انفعالية لتصوير الإسلام والبلاد الإسلامية بصورة مشوهة، وكان الباعث الأول الذى دفعها إلى نشاطها، هو العداوة التى أحدثها اختلاف الدين، وما تركته الحروب الصليبية وراءها فأخذ يعمل عمله فى بعض النفوس، ويدفعها إلى التفتن فى ضروب التشفى».

«وأهم هذه المحاولات أنها لم تقم على أساس دراسة الدين فى مراجعة الوثيقة دراسة مخلصنة نزيهة، تعتمد على الأسلوب العلمى الصحيح، وإنما كانت رغبة جامحة فى التشفى والنيل من مكانة الإسلام ورسوله».

«وقد دخلت الفاتيكان بكل ثقلها فى النيل من الإسلام عن طريق الاستشراق، فعملت على أن ترسل بعض رجالها من المبشرين، إلى بلاد الشرق لتعلم اللغة العربية وأنشأت معاهد لذلك، كما أنشأت مطابع عربية لمساعدة هذه الحركة». ثم يقول تحت عنوان «تطور جديد»^(١).

«تم تطور الاستشراق تطوراً جديداً وهاماً جداً، بخاصة من ناحية المقاصد، فبعد أن كان مسخراً لخدمة التبشير، ومقتصرًا على رجال الدين وحدهم دون سواهم من الطبقات المثقفة، لبس ثوباً جديداً فصار علماً قائماً بنفسه، هدفه دراسة اللغات الشرقية وآدابها».

وأنشئت لذلك أقسام وكليات فى بعض الجامعات^(٢).

«ولكن يجب مع ذلك أن نقرر أن ممارسة الاستشراق من أجل التبشير وخدمة الدين المسيحى لم تمت بظهور النزعة الجديدة العلمية، فقد ظل عدد من خدام المسيحية يمارسون الاستشراق لهذا الغرض نفسه، إلى اللحظة الراهنة» ومن غير رجال الدين..

(١) ص ١٥.

(٢) راجع ص ١٧٩ وما بعدها من كتاب «القرآن والمنهج العلمى المعاصر» سبق ذكره..

ففى هذه الكليات والأقسام لم يتخلص القائمون بها من روحهم العدائية المتأصلة فيهم من تربيتهم ووسطهم ضد الإسلام وأمته، فرأيناه يتحول إلى خدمة الاستعمار من وجه آخر وذلك بما يقدمه من معلومات وآراء تساعد خطته، وتحقق هدفه فى السيطرة على البلاد الإسلامية ويقول الدكتور اللبان^(١):

«وقد سمعت أحد كبار المستشرقين يتحدث أمامى فيذكر أن «مستر إيدن» كان قبل أن يضع قراراً.. سياسياً فى شئون الشرق الأوسط، يجمع المستشرقين والمستعمرين ويستمع إلى آرائهم، ثم يقرر على ضوء ما سمعه منهم».

وليس معنى ذلك كله أننا ننكر ما قدموه من خدمات فى تحقيق بعض كتب التراث وبعثها من جديد.. بنشرها، وما أصدره من دائرة المعارف الإسلامية، وبعض الكتب التى يتحدثون فيها عن الإسلام، وإن كانت تحتاج إلى تعقيب وتصحيح لبعض الأغلاط، سواء كانت مقصودة أو عن قصور علمى، لضعف تمكنهم من العربية وفهمهم جيداً للإسلام.

والخطير فى هذا كله سواء فى قراءة هذه الكتب أو فى الدراسة بأقسام اللغات الشرقية فى الجامعات الأوروبية، أن بعض الذين يقرءون ويدرسون، يتأثرون بما يقرءون أو يسمعون، دون وجود حاسة نقدية عندهم، بسبب عدم حصانتهم بالدراسات الإسلامية السليمة التى يرجعون إليها فى وزن ما يصدر عن هؤلاء المستشرقين^(٢).

وهؤلاء العرب المسلمون الذين يتأثرون هذا التأثير، يصبحون شريطاً مسجلاً يحكى عن هؤلاء نظرياتهم ودراساتهم المشكلة فى الإسلام فيما يكتبونه أو يدرسونه لطلابهم عندهنا. وتتألف تبعاً لذلك مدرسة من شبابنا، تتبع هؤلاء المستشرقين فى أفكارهم الخطيرة عن الإسلام وأممه سواء بحسن نية وبلاهة، أو عن تعمد

(١) ص ١٨.

(٢) وقد انتسب لهذه الكليات والأقسام العربية فى جامعات الغرب بعض المتعلمين العرب لأخذ شهادات منها تحت إشراف أساتذتها وبتوجيهاتهم التى لابد أن يستجيب الطالب لها حتى ينال الشهادة التى يريد على يد هؤلاء الأساتذة!!، وكما كان هؤلاء الأساتذة من ضحايا من طلابهم، لتمسكهم بدينهم وقيمهم.. ومخالفتهم لأساتذتهم!

وبجاجة، تستهويهم قاعدة «خالف تعرف».

وكم بلونا من هؤلاء ما بلونا من شذوذ وخروج على قواعد الإسلام وآدابه وشريعته، بفعل الدراسات الشرقية التي قام بها المستشرقون على أنها دراسات علمية سواء في الغرب أو في دول الشرق الشيوعي والتي تمثل الغزو الفكري والثقافي المخطط.. الهادئ الذي يسرى في جسم الأمة الإسلامية يهدوه كما يسرى داء السرطان في الجسم فيخر به..

الطريق الذي سلكه المستشرقون:

لا بد أن يكون مفهوماً بديهياً لكل مسلم، بل لكل قارئ أن هؤلاء المستشرقين بل وغيرهم من كتاب الغرب 'عامّة، إنما ينظرون إلى الإسلام ويكتبون ويتحدثون عنه؛ من واقع عوامل خاصة تتحكم فيهم، لا من واقعنا ونظرتنا نحن:

* فالروح العدائية للإسلام والمسلمين متمكنة في نفوسهم، رضعوها منذ طفولتهم، ثم نمت في كبرهم فأصبحت تلون ما يكتبون.

* إنهم تربوا في ظل تفكير ونظام مادي منفصل عن الدين، فقد عزلت المسيحية عندهم عن حياة ونظام الدولة، وكان هذا في نظرهم هو سبب نهضتهم وقوتهم، ثم استمرارها.. ومن هنا رسخ في أذهانهم أن التفكير المادي، وتسلط الإنسان على مقدراته ووضع نظام حياته بنفسه بعيداً عن تأثير الدين المسيحي، هو كل شيء، والدين أي دين - يجب أن يتعد عن الحياة، - حياة أي مجتمع - لكي ينهض هذا المجتمع، وعن هذا وعليه قام تفكيرهم، دون أن يلتفتوا أو يستوعبوا النظرة التقدمية الإسلامية لتنظيم الحياة..

* ولكن هل هم حين يكتبون هذا عن فكرهم وعقيدتهم طبعاً، وبوجهونه للمسلمين، ويضعونه تحت أنظارهم، ولا سيما شبابهم، يودون فعلاً أن ينهض المسلمون؟ ويحرصون على هذا؟ أم هم يريدون التخريب لنا وكفى؟ ويستخدمون غاية النهوض والتقدم لنبلع الطعم؟.

* قد يودون أن ينهض المسلمون، ولكن على أن يسيروا إلى نهضتهم - كما ساروا هم - على حطام دينهم - فالإسلام هو عقدتهم - فلا بأس أن ينهض المسلمون كما نهض الغرب، لكن على الأساس الذي نهض عليه وهو إبعاد الدين^(١) عن حياته كما فعل هو..

* وهذا هو هدفهم الأصلي، لكن أن ينهض المسلمون، وعلى وحي وصوت من دينهم، هذا هو الخطر الذي يجب إبعاده، ويجب قبل أن ينجح المصلحون المسلمون في وضع معالم النهضة من الإسلام وإقناع المسلمين بذلك، تجنب المبادرة بوضع طريق آخر للنهضة أمام المسلمين، يؤدي إلى ما يزيد من تحويلهم عن دينهم وأصالتهم، وجعلهم ركاب عربة ملحقة بقطارنا، فنجرها إلى حيث نريد.

فلا يكون لهم أى شأن أو قيمة أمامنا كمسلمين أصحاب عقيدة ونظام واتجاه وحضارة، وكيان خاص بهم، كما كان شأنهم منذ بدء تاريخهم، مما أوقع بنا (أى المسيحيين الغربيين) المأسى على مر التاريخ..

كان هذا هدفهم وتلك هى خطتهم..

وتلاقى بذلك: الهدف الدينى والهدف السياسى، وتزاوجا عند المستشرقين إلا النادر منهم، ممن أخلص للبحث العلمى.

(١) يلاحظ المتنبهون لحركة التاريخ بعد أن أعلنت تركيا أنها دولة علمانية تسير في اتجاه الغرب وقطعت صلتها بالإسلام والعربية أن السياسيين في الغرب ومعهم المستشرقون في بحوثهم وكتاباتهم أخذوا يسيدون بما فعلته تركيا وبما ظهر فيها من تقدم صناعى علمى بسبب انفصالها عن الإسلام.. راجع ص ٤٦، ٤٧ من العلمانية والإسلام للدكتور محمد البهي. مطبوعات مجمع البحوث ويلاحظ أن ما حصل في تركيا من تقدم طفيف كان بسبب حرص الغرب على مساعدة تركيا بعد انفصالها عن الإسلام كمكافأة لها، ولكى يعطوا البرهان عملياً على نتيجة إبعاد الدين عن الدولة.. ومع ذلك فحال تركيا هو كما نعرف الآن، لم تلحق بالغرب، ولم تبق على صلاتها بدينها بالشرق، وإن كان الشعب قد أرغم الحكومات على إلغاء كثير مما أصدره تاتورك من قرارات متشددة ضد الدين واللغة العربية فأنشئت معاهد وكليات إسلامية، وعادت اللافئات والأذان باللغة العربية ونشطت الحركة الإسلامية بين الشعب نشاطاً مؤثراً. وإذا كان هذا أمراً حسناً فإن ما ترتب على تغيير الكتابة من حروف عربية إلى لاتينية غربية قد قطع الصلة بين الشعب التركي الجديد وبين تراثه العظيم المكتوب بالحروف العربية.. وهى خسارة قل أن تعوض.

وعلى هذا الأساس اتجهوا إلى دراسة العربية والإسلام وسموا «مبشرين»، وأخذوا ينقبون في الكتب العربية عن الإسلام والأدب العربي، وكان لا بد لهم مهنيًا ولكي يظهروا بظهر المهتم بالتراث العربي الإسلامي، في أن يحققوا بعض المخطوطات ويطبعوها وأن ينظموا بعض الدراسات والكتب الدينية والعربية ويطبعوها.

وفعلًا قاموا في ذلك بعمل ملموس استلقت الأنظار وكانوا سابقين في هذا المضمار، كما أنشئوا المعاهد والأقسام العربية، ليربوا فيها طلابًا تلامذة لهم كما ذكرنا، وظهروا في صورة الذين يخدمون التراث الإسلامي، كي تتقبل أعمالهم وآراءهم وتتخذ بها مما حصل فعلاً..

ومن خلال عملهم هذا وعلى مر الزمان قدموا دراسات عن الإسلام واللغة العربية تحمل وجهة نظرهم، ولكن لا بد أن يكون معروفًا مقدمًا أن دراساتهم ووجهة نظرهم تقوم على أسس ترضيهم، ولكنها قد لا ترضينا ولا نفرها..

* فقد قامت دراستهم على أنه دعوة محمد الرجل المصلح - لا الرسول - فأراؤه الدينية وعلى الأخص آراء بشرية مما تعلمه من غيره ومن تجاربه، وعلى أساس هذا لا حصانة لها. ولا نأخذها قضية مسلمة.

* والقرآن من اختراع محمد وأقواله، نسبه زورًا إلى الله - كما كان يقول المشركون أيام الرسول مما حكاها القرآن عنهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾^(١)، ﴿وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٢)، ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾^(٣) إلى غير ذلك مما حكاها القرآن من أقوال المشركين، ورد عليه. وقد كانوا مثل هؤلاء المستشرقين حاquدين.. وخائفين على مصالحهم.

* ومادام القرآن بشريًا و اخترعه محمد وليس إلهيًا فمن الضروري أن يخضع للمقاييس البشرية لتنتقده كما ننقد كلام أي كاتب وأديب، ونقبل منه ما نقبل ونرفض منه ما نرفض، ولا يصح أن نقف أمامه خاشعين مستسلمين مقدسين

له، بل لا بد أن يخضع لمقاييسنا في البحث العلمى الجديد وهى مقاييس مادية.

❖ وعلى هذا بدءوا ينقدون القرآن، ويشرحونه تشریحاً، ويفترون ما يفترونه عليه، حسب أحقادهم وتصوراتهم الخاطئة.. وكانت لهم دراسات متعددة في هذه الناحية، وضعوها أمام المسلمين في ساحات الدروس وفي الكتب التى يصدرونها باسم: أنها أبحاث علمية، مما تأثر به بعض المسلمين^(١).

❖ والإسلام لا يُعرف من القرآن والسنة فحسب، بل من تفكير المسلمين وتصرفاتهم أيضاً في حياتهم، وبدءوا ينقبون ويلتقطون أفكاراً من هنا وهناك، وما أكثر شواهدا المدونة في الكتب، كما يلتقطون من واقع حياة المسلمين ما يصورون به الإسلام ومبادئه، وهنا يتحللون من مقاييس البحث العلمى: التى لا تجيز الربط بين المبدأ وتصرف صاحبه في الحكم على المبدأ وسلامته..

❖ وهم ينظرون إلى تعاليم الإسلام ولا يقيمونها تقييماً ذاتياً على أساس علاقتها بطبيعة الإنسان وأثرها في الفرد والمجتمع، بل يقيمونها على أساس نظرتهم وحضارتهم المادية، هل توافقها أو تخالفها؟ مع اتهام كل ما يخالفها بالتأخر والتخلف، وهذه ليست نظرة علمية ولا منطقية.. فحضارتهم وطريقة حياتهم هما المقياس السليم للحكم وما عداها غرور. فمن أراد التقدم فعليه أن ينحو نحوهم، ويتبع سبيلهم، وفي المقام الأول عندهم: إبعاد الدين عن الحياة. ❖ والتمسك بالإسلام وتعاليمه - في رأيهم - معناه العزلة عن الحياة وعن

(١) راجع كتاب «الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى» تأليف الدكتور محمد البهى الطبعة الثانية ١٩٦٠ نشر دار القلم ص ٢٠١ وما بعدها «بشرية القرآن».. وعرض لبعض مقاطع من كتاب «الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين، وبين أثر آراء المستشرقين فيها. لا سيما كتاب المستشرق.. جب «المذهب المحمدي» وقول الدكتور عن قصة إسماعيل إنها أسطورة استغلها الإسلام لسبب دينى ص ٢١٦، ٢١٧. كما يعرض بعض مقاطع من كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للأستاذ على عبد الرازق. وقد ألفه لأغراض سياسية لكنه تورط فيما ذكره عن الإسلام من أنه دين لا دولة، ويجب فهمه الاسلام على ضوء المسيحية وبعدها عن التدخل في الحكم.. ص ٢٤٦ وما بعدها، وقد تأثر بهذا أخيراً سنة ١٩٥٠. ساذ خالد محمد خالد في كتابه «من هنا نبدأ» ويبين رأيه على أن الإسلام دين لا دولة، ورددت عليه أنا وغيرى حينذاك، ولكنه عاد في سنة ١٩٨٢ وصحح رأيه واعترف في شجاعة محمودة بخطئه، وأخرج كذبه «الدولة في الإسلام» واعترف بأن مما تأثر به قراءاته عن الغربيين في كتابه الأول..

التقدم، معناه التخلف والضعف والمرض والفقر.. إلخ.. وتغافلوا عن نهضة المسلمين على أساس الإسلام هذه النهضة التي تتلمذوا عليها. ويسول لهم غرورهم، ويلى عليهم حقدهم: أن يرسموا لنا طريق التقدم، فيقولون:

* لا بد أن ينحو الإسلام نحو المسيحية في تركيزها على غرس المحبة بين الناس، وكفى!! ويتخلى عن تدخله في تنظيم الحياة وعلاقات المسلمين، بعضهم ببعض، وعلاقاتهم مع الآخرين، وعن التدخل في تصرفاتهم المالية وغيرها، ما يحل منها وما يحرم.

* ويترك ذلك كله للناس، وهم أحرار في وضع هذه النظم، حسب تصورهم ومصالحهم، يقبلون ما يقبلون، ويرفضون ما يرفضون، ويعودون فيرفضون ما قبلوا، ويقبلون ما رفضوا، هم أحرار في تنظيم حياتهم بما يتفق مع العصر الذي يعيشونه، وما تمليه عليهم حياتهم!! نفس المنهج الذي سمى عندنا بالعلمانية واعتنقه مع الأسف بعض منا تتلمذوا على أفكارهم!!

* ثم لا دخل له في توجيه الناس إلى الدفاع عن دينهم وأوطانهم، مما سماه (الجهاد في سبيل الله) وهذا هو المهم جداً عند المستشرقين، لأن الغربيين جميعاً يخافون ويرتعدون من كلمة الجهاد^(١) في الإسلام.

* وغايتهم من هذا كله أن يبعثوا الإسلام في نفوس المسلمين عن التدخل في تنظيم حياتهم وتحريضهم على رفض هذا التدخل وعلى فصل الدين عن الدولة، كما حصل في أوروبا لكي يتقدموا وينهضوا إذا أرادوا النهوض والتقدم!!

* والتلويح بالنهضة والتقدم شيء يغري المتخلفين، وهو الشيء الذي استعمله عندنا رجال منا كبار للسب على منوال الغرب وحضارته، خيرها وشرها..

(١) أذكر وأنا في الهند ما حكاه تبارعاصرين من العلماء من أن الإنجليز بعد ما سيطروا على البلاد سنة ١٨٥٧م، وكان فيها مدارس دينية تدرس القرآن والحديث والفقه، فكانوا يحاربون كل مدرسة يعلمون أنها تدرس آيات وأحاديث وأبواب الجهاد إلى حد إغلاقها وسجن القائمين عليها، ولذلك سروا كثيراً بمرزا غلام أحمد القادياني مؤسس القاديانية في عهدهم، واحتضنوه هو وأتباعه، لأنه باسم الدين - وكان من علماء الهند أولاً - نادى بإبطال الجهاد بالنسبة للإنجليز في الهند، واتخذ لنفسه دعوة جديدة، وأدعى النبوة، ولقى هو وأتباعه وحتى الآن من الإنجليز كل عون وتأييد وحماية.

باعتبار أن هذا شيء طبيعي^(١) عندهم وفي رأيهم !!

* وقد نسى هؤلاء وتابعوهم أن الإسلام تتوفر فيه كل عوامل النهضة المادية في هذه الحياة، ويزيد عليها نهضة روحية تعتبر أساساً قوياً وباعثاً لهذه النهضة المادية، ونسوا أن الحضارة المادية تحطم نفسها بنفسها إن لم تصحبها روح دينية..

لكن هكذا يدعو المستشرقون وغيرهم من الغربيين، ولا ملام عليهم ولكن اللوم على هؤلاء الرجال منا، الذين تابعوهم، لا سيما الذين درسوا الإسلام، ويستطيعون دراسته، ومع هذا يندفعون وراء الغربيين ويحاكونهم ويلتمسون لمسلكتهم حججاً، ويررون موقفهم هنا.

* تماماً كالغربيين من هؤلاء المستشرقين، فهم أعقل من أن يدعوا دعوتهم الخطيرة هذه، دون أن يلتمسوا لهم أدلة وحججاً يتصيدونها من هنا وهناك، ويلقونها أمام طلابهم وقرائهم.. وهؤلاء المغرمون منا بالغرب، والذين بهرتهم حضارته أو مدنيته، يرددون بيننا ما يقوله هؤلاء المستشرقون، ويسخرون له جهودهم وأقلامهم دون فحص ودون بصر بالعواقب.

* وبما لا شك فيه أن هؤلاء المستشرقين قد يجحدون البعض مما يتصيدونه من حجج في اعتبارهم، للتدليل على وجهات نظرهم، سواء في تراثنا الفكري أو في أفعال المسلمين وتصرفاتهم، ما داموا يستدلون على الإسلام من تصرفات أهله.. فالتراث الإسلامي بكل كتبه يشبه البحر الطافي تجرف مياهه معها الكثير من الغناء والرمل، فهم كما يقال: «لكل ساقطة في الحى لاقطة».

وقد رأيت أناساً في أيام فيضان النيل، يترصدون جثث الحيوانات التي يحملها النهر في طريقه ويحصلون عليها لكي ينتفعوا بجلدها، وبما يريدون الانتفاع به منها وآخرين كانوا يحصلون على (القش والبوص) الذي يجرفه النهر، وكذلك بعض الأخشاب المهمة التي ألقيت فيه^(٢).. وهكذا..

(١) راجع كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» سنة ١٩٣٨ للدكتور طه حسين.

(٢) وشبههم الأستاذ أبو الحسن الندوى في كتابه «الإسلام والمستشرقون» ص ١٧ ونشر ندوة العلماء «لكنو» الهند ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م شبههم بالسائحين في مدينة ذات رواء وبهجة ونظام ونظافة، فيتركون =

بينما الأسوياء من الناس يبتعدون عن مثل هذا، ويحرصون على أن يشربوا من النهر، بعد تصفية مياهه وتطهيرها من العوالق التي تعلق بها من عكارات وغيرها.. وللناس فيها يعشقون مذاهب..

لكن الانبهار بحضارة الغرب جعل أناساً منا لا يقتصرون في دعوتهم للاتجاه للغرب على اقتباس علومه وصناعاته وما شابه ذلك، مما ندعو إليه، ولكنهم يدعون إلى اقتباس خيره وشره، حلوه ومره، ويستحسنون أن يأخذ الناس بدعوتهم..

وهذا هو الخلل والنقص في الثقافة الأصيلة لهؤلاء الكبار، الذين رضوا بذلك أن يكونوا معاول أخرى داخلية تضاف إلى المعاول الخارجية للمبشرين والمستشرقين، في زعزعة ديننا وثقافتنا..

وإخواننا هؤلاء الذين أمسكوا بمعاول الغربيين يهون بها على رؤوسنا، هم أشد خطراً علينا من الغرباء الأعداء، فهم يضربون من الداخل في بنياننا، وهم مسلمون منا، وربما باسم الإسلام وباسم الوطن والغيرة عليه والحرص على مصلحته وتقدمه يهدمون، ويجدون لذلك تلامذة لهم وأنصاراً، يشدون أزرهم،

= ذلك ولا يلاحظون إلا المزايل والمراحيض والمستنقعات، كما هو دأب المفتش على النظافة، وهم لا يجدون في الإسلام شيئاً من ذلك إلا في خيالهم، ولكنهم يتصيدون شيئاً من ذلك في بعض الكتب ولدى بعض الآراء والتصرفات وهم يقلبون الحسنة إلى سيئة بالمنظار الخاص بهم، ويكبرون الصغيرة حتى يصوروا الذرة جبلاً، والنقطة بحراً ولكي يبدو منصفين في نظر القارئ يذكرون بعض الحسنات الهامشية وفي وسطها يدسون السم المركز في مقدمات تؤدي للشك في قضايانا الإيمانية.

ويقول ص ١٩ تحت عنوان: «الاستراتيجية الدقيقة والاستشرافية» ومن دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية، ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقومون لها بجمع معلومات من كل رطب، ويأيس، ليس لها علاقة بالموضوع سواء من كتب الديانة والتاريخ والآداب والشعر أو الرواية والقصص أو المجون والفكاهة، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ويقدمونها بعد التموه بكل جراءة، وبينون عليها نظرية ألا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم، «ويشيرون بذلك في قلوب قادة العالم الإسلامي اليوم وزعمائه بمن تنفقوا في مراكز الغرب الثقافية الكبرى، أو درسوا الإسلام بلغات الغرب - سيئات حول الإسلام والمصادر الإسلامية، ويجدون في أنفسهم يأساً من مستقبل الإسلام، ومقتناً على حاضره وسوء ظن ماضيه، حتى يتركز نشاطهم وحماسهم في رفع لواء «تطوير الدين» إلخ، ولا بد أن نفارئ لمس - كما لمست هذا كله في بعض الشخصيات التي تربت في الغرب وحدث عنه وتعتمد على كتب المستشرقين المغرضين - وكأنها مقدسة - في ثقافتهم الإسلامية.

ويعزرونهم بالمضى في طريقهم.. وكفى الله المبشرين والمستشرقين شر القتال!!
فكان موقفهم هذا شبيهاً بموقف المنافقين من الإسلام أيام الرسول، مما كشف عنه القرآن في وقته، وكانوا يضربون الدعوة ويكيدون لها من داخلها، وهم معدودون من صحابة الرسول، حتى رفض صلى الله عليه وسلم مرة اقتراحاً بقتل أحدهم، لفظاعة جرمه وقال: «حتى لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»!!

وهم في ضربهم للدعوة من الداخل ينطبق عليهم الاصطلاح السياسى الحديث للخونة الجواسيس «الطابور الخامس» والدول الآن تحكم على الطابور الخامس بالإعدام للخيانة الوطنية.. لبشاعة جرمهم... وخيانتهم لأماناتهم التي أوثقوا عليها، فكانوا أشد جرمًا وضررًا من الأعداء الحقيقيين، وأكثر تمكنا من إيذاء وطنهم ودينهم....

وقد حفظنا هذا الدعاء، ونتمثل به في مثل هذا المقام: «اللهم اكفني شر أصدقائي أما أعدائي فأنا كفيل بهم».. لأن أمر الصديق كما يقول شاعرنا الحكيم: «فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة»....

وهكذا شأنا مع رجال أو عمال منا يحملون على أكتافهم معاول المبشرين والمستشرقين، ليهدموا بها حصوننا من الداخل، أو شأنا مع مكاتب للاستيراد، تستورد لنا الأغذية الفكرية الفاسدة، كما يستورد بعض الناس الأطعمة الفاسدة!

وإذا كنا نقرر هذا - كغيرنا - عن عامة المستشرقين وتلامذتهم في بلادنا، فإن من العدل.. والإنصاف أن نذكر أنه كان لهم فضل كبير في بعث كثير من المخطوطات إلى الحياة، وتحقيقها... ونشرها كما أشرنا إلى ذلك.

كما كان لبعض منهم ميزة الإنصاف والحيدة، التي أسلمت بهم إلى معرفة حقيقة الإسلام، والتحدث عن هذه الحقيقة، دون تحيز.. كما قدموا جهودهم المخلصة في مؤلفات لهم لخدمة الإسلام وتاريخه، وتراثه بعامة قدر استطاعتهم.

ثقافتنا والتعليم الحديث:

كان المفروض والمرجو أن يواصل المسلمون تقدمهم العلمى والحضارى، الذى شمل العالم الإسلامى شرقه وغربه فى الأندلس، فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا وشعوبها تعيش فى ظلام دامس، وتتلمس أسباب التقدم من العالم الإسلامى وحضارته، وترسل بعثات على أعلى مستوى إلى الأندلس، لتقتبس منها شيئاً^(١) من حضارتها.. ولكن هذا المفروض والمرجو لم يتحقق، وغط العالم

(١) يذكر الأستاذ طه المدور فى كتابه «بين الديانات والحضارات» بيروت ١٩٥٦ فصلاً عن عدد البعثات التى أوفدها الغرب إلى الأندلس لتقتبس أنواع الفنون والصناعات.. نقلاً عن المؤرخ الفرنسى «فالير» «Falier» فى كتابه «استرداد الأندلس» من أن معظم المقاطعات الأوربية كنكلترا وفرنسا وهولندا، وتوسقانا أرسلت بعثات منها للأندلس، ويخص بالذكر منها ثلاثة - الأولى فرنسية برياسة الأميرة إليزابيث، ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا، والثانية إنكليزية وعلى رأسها البرنيس «دوبان» ابنة الأمير جورج، والثالثة وما يليها كانت إسبانية وبعضها من سافوا والبافار وسكونيا والرين. وقد بلغ عددها عام ٣١٢هـ - ١٢٩٣م وحده سبعمئة طالب وطالبة. وقد بعث الملك «فيليب» البافارى رسالة إلى الخليفة هشام الأول يسأله السماح له بإيفاد بعثة تتعرف على حالة بلاد الأندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها لتتمكن من اقتباس النمر المفيد لبلادها، فوافق الخليفة وأرسل الملك بعثته برئاسة وزيره الأول «ويلمين». كذلك بعث ملك إنكلترا خطاباً إلى الخليفة هشام الثالث بهذا الشأن، ووافق الخليفة وجاءت بعثة مكونة من ١٨ فتاة من بنات الأمراء والأعيان يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى ويحمل معه كتاباً للخليفة وهذا تعرييه كما جاء فى كتاب «العرب عنصر السيادة فى القرون الوسطى» للمؤرخ الإنجليزى «جون دوانفورت»: «من جورج الثانى ملك إنكلترا والغال والسويد والترويج إلى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام.. بعد التعظيم والتوقير. سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الضافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم، فأردنا لأبنائنا اقتباس غاذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يحاطها الجهل من أربعة أركانها، وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الأميرة «دوبانت» على رأس بعثة من بنات أشراف إنكلترا لتتشرف بلمس أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم.. إلخ.. والإمضاء من خادمكم المطيع: جورج م.أ. وقد وافق الخليفة بخطاب بعث به إلى الملك قال فيه: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين وبعد. إلى ملك إنكلترا وإيكوسيا واسكندفيا الأجل. لقد أطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعينهم الأمر على طلبكم. ونعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكى.. إلخ.. والإمضاء خليفة رسول الله على ديار الأندلس: هشام».

ويذكر الكتاب «بين الديانات...» أن البعثة الألمانية المكونة من ٢١٥ طالباً وطالبة وزعت حسب رغبة «ويلمين» على معاهد الأندلس العلمية والصناعية حسب التخصصات الآتية: الفلسفة والعلوم المختلفة، صناعة النسيج والتطريز والنقش، الطبابة والتمريض، صناعة الأسلحة، صناعة الزجاج، صناعة بناء=

الإسلامى فى نوم عميق لعدة قرون، فى حين بدأت أوربا تمسك بالخيط، وتتقدم فى مجالات العلوم والصناعات. وتزحف غربا لتكشف أمريكا وغيرها من العالم المجهول، وتزحف شرقاً لتصل إلى الهند وما وراءها، عن طريق الدوران حول أفريقيا، وتفرض سلطانها على المحيط الهندى، وعلى الأمم الشرقية، ومنها العالم الإسلامى...

ومحصل هذا كله من أوربا، والمسلمون يغطون فى نومهم، ولا يعلمون ما يجرى فى أوربا من تقدم، وبالتالي لا يقتبسون منه شيئاً.. مما جعل الفارق بين الشرق الإسلامى والغرب الأوروبى شاسعاً، ومن الصعب تعويضه، فلا هم واصلوا تقدمهم، ولا هم تنبهوا لنهضة غيرهم وتابعوها، واقتبسوا منها أولاً بأول.. يقول الأستاذ المؤرخ المرحوم محمد صبيح^(١):

استغرق نهوض أوربا أربعة قرون، توقفت فيها حياة الفكر والابتكار فى معظم البلاد الإسلامية، ولاسيما مصر، لأن أصحاب السلطان فيها. وهم العثمانيون - كانوا رجال حرب.. وفى هذا الوقت أخذت أوربا تبني حضارة فكرية ومادية هائلة، ركبت البحار، وذلت لها الأمواج، وأتقنت صناعة الأسلحة، وكان البارود والبخار والمطبعة من أهم ما اعتمدت حياتها عليه.. ولذلك أصابت المصريين الدهشة لما وجدوه سنة ١٧٩٨ فى الحملة الفرنسية من أشياء لم يكن لهم معرفة بها، من أسلحة ومطابع وغير ذلك من مظاهر الحضارة الغربية، وإن كان ذلك لم يلهمهم عن مقاومة نابليون وحملته، حتى طردوا آخر فلولها سنة ١٨٠١م، ولقد كان التعليم فى هذه القرون على مستوى العالم الإسلامى قاصراً على المستوى الذى كان عليه التعليم فى الأزهر من تدريس العلوم الدينية والعربية، باعتبار أن هذا عندهم هو العلم الحقيقى الذى يجب على المسلمين العناية به أما ما عداه فلفو يلهى عن العلم الحقيقى!!

= السفن، صناعة الورق، البارود، بناء القلاع والحصون، علم الفلك والسيما (أى الكيمياء والفيزياء) العلوم الزراعية والصناعية الأخرى» وقد تولى حكم الأندلس ثلاثة باسم هشام. الأول من ١٧١ هـ - ٧٨٧ م - ١٨٠، والثانى من ٣٢٦ - ٣٩٩ هـ، والثالث من ٤١٨ - ٤٢٢ هـ القرن الحادى عشر..
(١) فى كتابه «أيام وأيام» ص ١٢.

ولم يكن في مصر من دور للتعليم غير الأزهر، والكتاتيب المنتشرة في المدن والقرى، والتي تمده بالغذاء من الطلبة الحافظين للقرآن، العارفين بالقراءة والكتابة، ومنتهى أمل كل متطلع للعلم أن يكون من المتعلمين في الأزهر والمتخرجين فيه، العارفين أو المتبحرين في علوم الدين واللغة العربية.. وكان للأزهر نظامه ومنهجه الذي أخذ شبه القداسة في ثباته، وكذلك كتبه التي تدرس فيه.

«وكما كان للمسلمين كتاتيبهم الخاصة بهم، كان، للأقلية القبطية كتاتيب تدرس الدين والأخلاق والقراءة والكتابة باللغتين العربية والقبطية»^(١).

ومعنى هذا أن المصريين لم يكونوا مهتمين إلا بلغتهم العربية وبدينهم الإسلامى أو المسيحى.. على النظام المعهود لهم من قرون..

أما العلوم التى سميت بالعلوم الحديثة، التى جلبت من أوروبا فيما بعد، فلم يكن لديهم بها عناية مع أن المسلمين إبان ازدهار حضارتهم كانوا أساتذة هذه العلوم، وعنهن نقلتها أوروبا وزادت فيها.

وكان ما وصل إليه المسلمون من حضارات مزدهرة في قرونهم الأولى، صدى لتعاليم دينهم التى تأمرهم باكتساب كل علم يتصل بالدين أو بالحياة، وبالتفوق فيه، حتى يكونوا في مقدمة الأمم..

ولكن مدارس المسلمين فيما بعد وعلى رأسها الأزهر أخذت جانباً واحداً من هذه العلوم، وعكفت عليها ولم يكن لهذه العلوم التى يعنى بها الأزهر أية صلة بالحياة العملية وأساليب التقدم المادى فيها.. وكذلك كان خريجوه حتى بلغ بهم تعصبهم للوضع الذى ارتضوه، إلى رفض كل إصلاح يدخل عليه، ولو كان نافعا... خوفاً من أن يؤثر هذا الإصلاح على مستوى علوم الدين واللغة: حتى الكتب وتهذيب أسلوبها، رفضوه بحجة المحافظة على التراث!! مع عتامة هذا الأسلوب وتعبده...

(١) التعليم الأجنبى ص ٣٢ مصدر سبق ذكره، والتعليم فى عهد محمد على ص ٦٦٧ مصدر سبق

وكان هذا باختصار هو وضع التعليم في مصر لعدة قرون حتى نهاية القرن الثامن عشر، وبداية التاسع عشر.

وبقدر ما ابتعد هذا التعليم عن العلوم المادية الحديثة التي تنهض بالأمم مادياً وحضارياً، كان دوره القوى البالغ في حفاظه على طابعنا الإسلامى، وشخصيتنا العربية، أمام كل غزو ثقافى من الخارج...

وهذا شيء محمود بلا شك، لكنه ليس كل شيء في حياة الأمم وتقدمها، وقوة شوكتها، فالتقدم المادى يحتاج إلى الإرتكاز على العلوم والصناعات.. والإسلام يعنى بالناحيتين، ويطير بالجنحين، ولهذا تأخرت مصر والعالم الإسلامى كثيراً عن العالم الغربى، الذى أخذ بوسائل التقدم المادى من علوم وصناعات... ولذلك كان لابد لمصر أن تصحو، وتأخذ بوسائل التقدم هذه، بعد هذه الرقدة الطويلة...

في عهد محمد على:

وقد بدأ عهد محمد على ببداية القرن التاسع عشر فقد رحلت آخر فلول الحملة الفرنسية عن مصر في ١٨٠١، واختار شعب مصر بقيادة علماء الأزهر والأشراف «محمد على» ليكون والياً على مصر من قبل الباب العالى العثمانى، ولم يرضوا بالوالى الذى أرسله بعد نابليون، واضطر الباب العالى لأن يوافق على رأى مصر، باختيار محمد على والياً عليها، في يوليو ١٨٠٥ م، وكان ذلك مظهرًا من مظاهر الإرادة الشعبية لمصر..

وفي أوائل عهد محمد على هاجم الإنجليز مصر للاستيلاء عليها، ولكن الشعب وقادته استطاع أن يصدّهم ويقضى على جيشهم، ويجبرهم على النزوح من البلاد، بعد ما هزم «فريزر» بجيشه في موقعة رشيد ١٨٠٧ م.

وخلص حكم البلاد لمحمد على من الناحية الخارجية، وإن بقى له منافسون من المماليك استطاع أن يكسر شوكتهم.

وكان محمد على جندياً ألبانياً في جيش الخلافة العثمانية، الذى أرسل لمقاومة

نابليون، وشاء الله أن يتولى حكم البلاد باختيارها، ليكون له ولأسرته تاريخ مرتبط بها.. وليبدأ خطوة جديدة في النهوض بها...

كان أمياً ولكنه لم يكن شاباً ولا رجلاً عادياً، بل كان موهوباً، وله طموحات واسعة، فاستطاع بدهائه وسياسته أن يكسب ثقة المصريين، حتى اختاروه والياً، ولكنه حين تمكن من كرسيه استدار على من اختاروه، وقصّ أجنحتهم، وغدر بهم، حتى لا يشاركوه الرأى في حكمه، ثم على الممالك، ودبر لهم مذبحة القلعة ليخلو له الجو في حكم البلاد..

وكان أمل الاستقلال بحكمها يداعبه، كما كانت الرغبة في النهوض بها تشغله.. وجعل من تكوين جيش قوى المفتاح الذى يفتح له أبواب الوصول إلى طموحه..

ولكن كيف يبنى هذا الجيش؟

لقد كان أمامه التعليم في الأزهر، ولكنه برغم أصلته وحفاظه على الدين واللغة، لم تكن مناهجه تؤدي إلى تخريج شباب يمكن الاعتماد عليهم^(١) وعلى ما اكتسبوه من علوم في تكوين هذا الجيش الذى يطمع محمد على في تكوينه جيشاً قوياً، يمكنه من الاستقلال بحكم مصر عن الدولة العثمانية.. إذ لم تكن وسائل تكوين جيش حديث قوى بعيدة عن تصوره.. بعدما رأى على الأقل

(١) يقول رفاعة الطهطاوى بعد أن يذكر علوم الدين واللغة وعلماء الأزهر: «إن هذا وحده لا يكفى الوطن بقضاء وطر، والكامل يقبل الكمال - ولا يرفضه - ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة. منوط بعد ولى الأمر بهذه العصابة (علماء الأزهر)، التى كان ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع أعلام الشريعة الحنيفة، معرفة سائر العلوم البشرية المدنية من كل ما يمدد على تعليمه وتعلمه علماء الأمة المحمدية» كتاب الإمام محمد عبده، لعبد الحليم الجندى ص ١٤ - دار المعارف..
ومما يذكر فى سجل تاريخ الأزهر ومناهجه فى القرن الثانى عشر (الهجرى)، أنه كان يدرس فيه فوق علوم الفقه واللغة، وعلوم الحساب والميقات والجبر والهندسة والمقابلة والمنحرفات، وأسباب الأمراض وعلاجاتها، وعلم الإسطرلاب والزيج والفلك، والأعمال الرصدية، والحيوان والنبات والمعادن. واستنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم - المصدر السابق ص ١٣
ولكن ذلك اندرس واقتصر الأزهر على علوم الدين واللغة والعناية بهما.. وإهمال ما عداها، اللهم إلا بعض قشور من العلوم الأخرى لا تعتبر شيئاً بجانب التقدم العلمى فى الغرب...

جيشاً فرنسياً وآخر إنجليزياً في حملتهما على مصر، وما كانا عليه من استعداد، بالإضافة إلى ما عرفه - ولابد - عن تقدم أوروبا بعلموها وصناعاتها، ومما لم يجد له مثيلاً في مصر.. وإزاء هذا كان لابد له من الاستعانة بعلم الغرب وصناعاته وأنظمتها، وأن يفتح على هذا كله، فماذا يفعل؟

هل يمكن أن يدخل التعليم الحديث على مناهج الأزهر والكتاتيب التي تمده بالطلاب، حتى يتخرج منه أطباء ومهندسون وصناع ورجال إدارة.. إلخ؟ كان هذا هو الأسهل والأقرب..

ولكن كان مستحيلاً في وقته.. فقد عارض الأزهر بعد مائة سنة تقريباً من هذا الوقت مجرد إصلاحات يسيرة أراد الشيخ محمد عبده إدخالها على مناهجه وسير الدراسة فيه..

وإذن فلا بد أن يترك الأزهر مع كتاتيبه، يسير على النمط الذي يسير عليه، حتى يتجنب الثورة والسخط عليه، ويختصر وقت الإصلاح الذي يريده بدون متاعب..

ويتجه إلى إنشاء مدارس حديثة تخدم هدفه بالسرعة التي يريدها، ويقتبس نظامها من الغرب، ويكون حر التصرف في توجيه هذه المدارس وتطورها كما يريد، دون أن يمس الأزهر أو يثير أحداً منه عليه.. وعلى هذا أنشأ المدارس الحربية، ومدارس للطب والهندسة والألسن والزراعة والصناعة، وأنشأ لذلك المدارس الابتدائية والتجهيزية التي يغذى طلابها هذه المدارس^(١) العالية..

(١) مما ينبغي ذكره هنا أن هؤلاء الطلاب لم يكونوا يأتون إلى هذه المدارس مختارين، بل كان أعوان الوالى يجمعونهم كرهاً، يأخذونهم من أهلهم، كما يأخذون الجنود وعمال السخرة، ويدفعون بالأطفال أو الصبيان إلى هذه المدارس، وأهلهم مشفقون عليهم، ويكون، ويعيش الطلاب في هذه المدارس قريباً مما يعيش الجنود في ثكناتهم، ويظنون بعيدين عن أهلهم مدداً مختلفة، وكانت الحكومة تعطى كل تلميذ مصروفاً وتقدم لهم الكساء والطعام، وتشرف عليهم صحياً حتى يتخرجوا.. وكان الأهالي يكرهون هذه المدارس ولا يقدم أحد منهم ابنه إليها مختاراً، وكان على العكس من ذلك تماماً: الأزهر.. ولذلك ظل عامراً بطلابه الذين يأتون إليه يعيشون فيه مختارين، ولا شك أن محمد على بذل جهوداً مضنية في سبيل التعليم، ووضع بذلك حجر الأساس له، لكى ينمو بعده، ويرى إبراهيم باشا أنه لا يمكن أن يؤتى ثماره إلا إذا صادف إقبالا من المصريين أنفسهم، واقتناعاً به، وبدأ يعمل لذلك، وبالتدريج بدأ المصريون يقتنعون به، =

ولم تكن هذه المدارس في بدء عهدها ببعيدة عن تدريس علوم الدين واللغة وحفظ القرآن، فقد كان بعض أساتذتها من الأزهر، بل ونظارها، وكان المهم أن تعد الطلاب بما عرفوه من كتابة ودين ولغة وحساب إلخ للمدارس المتخصصة العالية، ليكونوا بعد ذلك موظفين في الحكومة أو الجيش أو المستشفيات أو بدور الصناعة أو بالإدارة وحكم البلاد ومعاونة الحاكم.. إلخ..

بعثاته إلى أوروبا:

ولم يجد محمد علي بدءاً من الاستعانة بالأزهر والمتعلمين فيه في أولى الدفعات لمدرسة الطب والمهندسخانة وغيرها، ومن إرسال بعضهم إلى بعثات لأوروبا.. وكان منهم الشيخ رفاعة رافع الذي عين إماماً^(١) للبعثة الموفدة إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ وعاد، وكان إماماً ورائداً حقاً للنهضة الحديثة، كما كان غيره من رواد النهضة معه من أبناء الأزهر.

وقد اتجه محمد علي في بادئ الأمر إلى الاعتماد على إيطاليا، وتدريس اللغة الإيطالية في مدارس الحديثة، فاستدعى الأساتذة والضباط منها، واختار كتباً إيطالية في العلوم والصناعات لترجمتها، وكانت أولى بعثاته إليها سنة ١٨١٣ م، ثم اتصل بفرنسا وأخذ اتصاله بها واعتماده عليها يكثر، فانتعشت اللغة الفرنسية واضمحل شأن الإيطالية.

وكانت البعثة الثانية إلى فرنسا سنة ١٨١٨، ثم في ١٨٢٦ ومن بعد إلى ١٨٣٣ أرسل سبعين مبعوثاً للتعلم في فرنسا، في فروع مختلفة، كما أرسلت بعثات إلى النمسا وإنجلترا بعد ذلك طوال مدة حكمه..

ولم يكن ذلك غريباً بعد أن لمس مدى الاستفادة من هذه البعثات حين رجعت في النهوض بالبلاد في مختلف الميادين..

= ويقبلون عليه نسبياً، ولعلنا نذكر هذه الحالة من القانون الذي ألزم الآباء بتعليم أولادهم الآن في المدارس الإلزامية، وفرض عليهم غرامة إذا هم تأخروا في ذلك (راجع الفصل الثالث - المدرسة والمجتمع من كتاب التعليم في عهد محمد علي) ص ٦٣٢ وما بعدها للدكتور أحمد عزت.

(١) إختاره الشيخ حسن العطار وكلفه بأن يقيد ما يراه هناك نافعا لأمتة وقد ولد رافع ١٨٠١ وتوفي

ولقد كان من الضروري - كما قلنا - أن يهتم محمد على بالمدارس التي تغذى التعليم العالى التخصصى، ولذلك رأيناه يعلن أنه يريد نشر التعليم فى البلاد، حتى يتعلم الشعب، ولكن إمكاناته تقصر عن هذا، فيقتصر على بعض المدارس الابتدائية والتجهيزية.

فأنشأ ٦٧ مكتباً فى الأقاليم أو مدرسة ابتدائية من سنة ١٨١١ حتى ١٨٣٦، وإن كانت هذه المدارس بين شد وجذب، وكانت تابعة لديوان الجهادية أى للجيش، إذ كان الغرض الأول منها تغذية الجيش ولذلك كانت الصبغة الغالبة صبغة حربية من ناحية الضبط والربط فى المشى والأكل والنوم إلخ..

وفى سنة ١٨٣٦ انتقل التعليم من الجهادية إلى ديوان «شورى المدارس» ثم «ديوان المدارس» ووضعت له لوائح، وقل النفوذ الأجنبى فى التعليم، بالاستغناء عن خدمات كثير من الأجانب، وجعل التعليم على ثلاث مراحل: الابتدائية والتجهيزية والخصوصية، وهى العالية، التى تعنى بإعداد موظفين للإدارات المختلفة المدنية والحربية..

ولقد كانت مناهج هذه المدارس فى أول الأمر تعنى بالقرآن والدين واللغة العربية، وتدرس الكتب الأزهرية فيها، وتعتمد فى أغلبية مدرسيها على الأزهرين بجوار المواد الحديثة من لغة وحساب وجبر إلخ..

فلما مضت السنون وتخرج منها طلاب، وبدأت ثمرات التعليم الحديث تظهر، وبدأ العائدون من البعثات يشرفون عليه، اتجه التعليم إلى الغرب أكثر من ذى قبل، وأخذ القائمون على التعليم بتوجيه محمد على طبعاً ينشئون مكاتب أو مدارس أولية، على غرار ما فى إنجلترا، ثم فرنسا من نشر التعليم «من أقصر طريق وفى أقصر وقت».

ولذلك كانت مواد الدراسة به قليلة، ولم يعد يعنى التلاميذ فيه بحفظ القرآن، أو قراءة الكتب الأزهرية فى الدين والنحو والصرف، بل اتجه الاهتمام إلى دراسة القراءة والكتابة والحساب^(١).

(١) من ص ١٤٠ وما بعدها من كتاب «التعليم فى عهد محمد على» تأليف أحمد عزت عبد الكريم ١٩٣٨ نشر مكتبة النهضة.

ولقد كان لهزيمة محمد على أمام أساطيل الغرب^(١) وتركيا صدى بعيد في آماله، وأصيب بما نسميه «كسر نفس»، فأصبحت بهذه الحالة المدارس الحربية بصفة عامة، وهى التى كان التعليم كله بسبب تغذيتها، فضعف هذا التعليم أيضاً.

وليس هنا المجال الواسع الآن لمتابعة حركة التعليم الحديث في عهد محمد على، ثم في العهود التى تلتها حتى الآن، فسنعود إليه.

ويكفي هنا أن نشير إلى بدء إنشاء التعليم الحديث المنفصل عن التعليم الذى اعتادته مصر في تاريخها قبل عهد محمد على، وهو التعليم الأزهرى الذى كان مستقلاً بحركة التعليم في البلاد، حيث ترك محمد على هذا التعليم يجرى ويسير في مساره العادى، وأنشأ بجانبه التعليم الحديث المقتبس من النظام الغربى وعلومه، حتى يستطيع بناء جيش قوى ونهضة علمية وصناعية بالبلاد، وتم له ما أراد فعلاً.

وقد بدأت المدارس التى أنشأها محمد على متعاطفة في موادها مع حفظ القرآن وعلوم الدين واللغة، وشيئاً فشيئاً خفت أو خف وزن هذا التعاطف، واتجهت العناية أكثر وأكثر إلى العلوم الحديثة.. وكان هذا بدء ازدواج التعليم في مصر.. تعليم أزهرى له نظامه ومنهجه، لم يكن يهتم بالعلوم الحديثة، ونظام تعليمى حديث

(١) بلغ جيش محمد على ١٢٥ ألفاً كان موزعاً على رقعة من الأرض تبلغ آلاف الأميال أحياناً من القاهرة، حتى اتجه محمد على إلى احتلال اليمن والبحرين والإحساء ليحصل على خيراتها ويستعين بها في تقوية جيشه، وهزم هذا الجيش الدولة العثمانية نفسها، ووصل إلى آسيا الصغرى، وإلى ما هو أبعد من ذلك، وهذا غير حربه في السودان، وفي الجزيرة العربية حتى وصل إلى الدرعية، والرياض ص ٢٠ من كتاب «أيام وأيام» لمحمد صبيح الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧.

ولكن هذا المجد العسكرى الذى بلغه جيش مصر بقيادة إبراهيم باشا أزهى الدول الغربية فتحالت عليه فرنسا وإنجلترا وألمانيا وروسيا وهزمت أسطوله في موقعة «نافارين» البحرية في اليونان سنة ١٨٣٧، واضطر بعدها إلى توقيع معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ قصت أجنحته، وحدت من جيشه، وحصرته داخل مصر، وأخذت كل المدارس والأجهزة التى كانت من ورائه تغذيه في الضعف تدريجياً، وإن كانت خطته في إرسال البعثات للخارج قد ظلت، وكان عدد المبعوثين حين توفى ٧٢ مبعوثاً، وميزانية التعليم ٨٨ ألفاً، وعدد التلاميذ في المراحل كلها تسعة آلاف (عن المصدر السابق)، وفي أيام محمد على جاءت بعثة من اليابان إلى مصر لتقتبس أساليب محمد على في النهوض بمصر، لتسير عليها في اليابان كشأنها في الاقتباس من غيرها حتى الآن.. وقد سارت اليابان في طريقها دون عوائق، أما نحن فقد أصابتنا العوائق الكثيرة من الاستعمار.. فكنا كما نحن الآن، وكانت اليابان، وكان هذا قدرنا..

بجانبه يهتم بالعلوم الحديثة، كأداة للنهضة الحديثة واللاحق بالغرب مما فرض عليه مجاراته والاقتباس منه.. والسير على هده، دون العناية بالدين واللغة كما ينبغي..

ولا شك أن الذين عادوا من بعثاتهم في الغرب، أفادوا البلاد كثيراً بما اكتسبوه من هناك من علم وتجارب في تخصصهم، ولكن مما لا شك فيه أنهم عادوا منبهرين بما وصل إليه الغرب من تقدم، متأثرين قليلاً أو كثيراً بأوضاعه السامية هناك، وأنظمتهم ونظرتهم للحياة وتقاليده، فكان لذلك أثره على مجرى التعليم.

والتعليم في الغرب قد انفصل عن الدين، وأبعد الدين ورجاله عن المدارس، وانطلق يعني بعلوم الحياة المدنية كما يشاء، دون أية عناية بالناحية الروحية المعنوية المستمدة من الدين.. وكانوا هناك ثائرين على الكنيسة ورجال الدين، وكل ما يتصل به، وكان الذين عادوا من بعثاتهم هناك قد لاحظوا ذلك، وربطوه بما رأوه من تقدم، وبما سمعوه من الأوروبيين، من أنهم لم يتقدموا إلا بعد استقلالهم عن الكنيسة ورجالها، ولم يعد لهم ولا للدين أثر في حياتهم، إلا داخل الكنائس لمن يذهب إليها...

ولا شك أن هذه النظرة قد ألقت ظلها على فكر المبعوثين خفيفاً أو ثقيلًا، وعادوا محملين بهذا الفكر، وهم إن لم يستطيعوا تنفيذه عملياً، فقد خفف قليلاً أو كثيراً من نظرته لأهمية الدين ودراسته في المدارس على الأقل.

وإذا كان هؤلاء قد احتلوا مراكز الريادة والقيادة والتوجيه والإشراف على وسائل النهضة الحديثة، وكانوا قد حملوا معهم عدوى هذه النظرة الغربية للدين، فإن هذه العدوى - وإن كانت حتى في دور الحضانة لدى هؤلاء المبعوثين - كان لها أثرها في التعليم وفي الحياة بوجه عام...

وإذا كان التعليم وعدد البعثات والمبعوثين للخارج، قد أصيبا بنكسة بعد محمد على مباشرة في عهد عباس الأول، فقد جاء بعده سعيد سنة ١٨٥٤ وزاد انفتاحه على الغرب^(١).. ولا سيما بعد أن اتجه لشق قناة السويس، واتفق مع «ديلسبس»

(١) ألغى سعيد ديوان المدارس والمهندسخانة والطب ثم أعادها في حين كان يشجع المدارس الأجنبية بالمنح والهبات (راجع التاريخ مصر السياسي لمحمد رفعت ص ١٨١).

على شقها، وإن كان التعليم والبعثات لأوروبا لم يكن لها نصيب من هذا الانفتاح لأن الجهال أقرب إلى الانقياد من المتعلمين في رأيه!!!...

وجاء إسماعيل باشا سنة ١٨٦٣م وافتتح قناة السويس، وازداد انفتاحاً على الغرب، ورغبة في محاكاته وتقليده في حياته، حتى كان شعاره: أن يجعل مصر قطعة من أوروبا. كما هو المشهور عنه..

فأخذ التعليم على النمط الغربي خطه كذلك من التقدم، بعد أن جنت البلاد شيئاً من ثماره في تقدمها، كما خطا النظام الدستوري الشورى خطوة لا بأس بها حتى أنشئ «مجلس شورى النواب» في أيام إسماعيل، وإن كان قد عاد وأمر بحله في مارس ١٨٧٩، حين وجده يتطلع إلى إثبات وجوده، والاطلاع على الميزانية ومناقشتها، ولم يرضه ذلك، كما لم يرض عنه الغربيون الذين صار لهم نفوذهم على مجرى الأمور في مصر..

وتذكر كتب التاريخ أن رياض باشا وزير الداخلية ما كاد يتلو قرار حله في الجلسة حتى انتفض الأعضاء غضباً، وأعلنوا رفضهم للقرار، حتى قالت جريدة «التيمس» اللندنية في ١٦ أبريل سنة ١٨٧٩ تعليقاً على هذا «إن أعضاء مجلس الشورى النواب أظهروا أدلة كثيرة على استقلالهم» وذكرت القصة.

وقد ترتب على هذا استقالة الوزارة وتولية شريف باشا رئيساً لها، وقد عرف عنه تمسكه بالدستور حتى قيل عنه: أنه «أبو الدستور»، وانحاز إلى صف الشعب، مع أنه غير مصري الجنسية والأصل، وتربى في القصور الخديوية، وكان يعمل مع جمال الدين الأفغانى على التخلص من إسماعيل، وتولية ابنه توفيق لصلته بهما، لما كان يتعهد به لهما من تنفيذ آرائهما الإصلاحية، ولكنه ما كاد يتولى الحكم بعد عزل أبيه إسماعيل في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ حتى غدر بالأفغانى وتنكر لآرائه السابقة..

ونذكر هذا هنا استطراداً للدلالة على ما وصلت إليه مصر في ذلك الحين من بشائر التقدم والنهضة في مجالات الحياة.. لكن الديون التي تراكت على مصر من دول الغرب، بسبب شق قناة السويس، والاحتفال الذى أقامه إسماعيل

بافتتاحها، مكنت الغرب من فرض نفوذه على الخديوى والتدخل فى شئون مصر الداخلية، باسم حماية هذه الديون.. وبالتالي فى محاربة كل نزعة وطنية أو دينية، بما كان له أثره على مجرى الأمور التى انتهت بالثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى لمصر الذى كان له أثره السيئ عليها فى جميع النواحي..

ولولا هذا الذى دبر له الغرب بإحكام، ووقع فى شباكه حكام مصر، لسارت مصر فى نهضتها التى سبقت بها كل أمم الشرق، وبلغت فى تقدمها على الأقل ما بلغته اليابان، التى أرسلت بعثة منها إلى مصر أيام محمد على، لتطلع على نهضتنا، ولتقتبس منها ما تراه مفيداً لها.

وقد سارت اليابان فى طريقها دون عوائق وأصبحت نهضة مصر بالنكسات، حيث ظل الاحتلال جاثماً على صدرها من ١٨٨٢ إلى ١٩٥٦، حيث رحل آخر جندى من جنوده فى يونيو من ذلك العام.. وكان من سوء حظ مصر أنها لم تنعم بعد ذلك باستقرار سواء من حيث أعداؤها الخارجيون، أم من تخطيط سياستها الداخلية، وفقدانها للكثير من معالم الروح الأصيلة لثقافتها، مما أصابها بالتشتت والاهتزاز فى التصويب نحو هدفها، وبالتالي فى ضياع الكثير من جهودها وآمالها..